الهجوم العثماني على كردستان وسقوط امارة سوران

القسم الأول ○ عبدالفتاح علي يحى

[redacted]التحديد تأريخ تأسيس الأمارة السورانية[1] لكن العديد [redacted]يذهبون الى أنها تأسست في القرن الثاني عشر الميلادي . [redacted]كان راعياً كردياً فقيراً . ولقد دام عمر هذه الأمارة سبعة [redacted]حكم خلاله حوالي أربعة وعشرون أميراً وأميرة واحدة تدعى [redacted]وبسبب الظروف السياسية والعسكرية أتخذت الأمارة عدة [redacted] دوين ، أربيل ، شقلاوة ، حرير ، خليفان ، وأخيراً راوندوز حيث نالت أعظم شهرة لها في عهد الأمير محمد باشا الكبير المشهور بـ «ميري كوره» أي الأمير الأعور» حتى أن طائفة من المؤرخين أطلقوا عليها خطأ أسم إمارة راوندوز .

دأب أمراء سوران دوماً على أبراز كل ما يضفي على أمارتهم صفات الأستقلال فحكموا بحرية ، ولم يكن حكمهم أي مظهر من مظاهر العظمة والكبرياء ولم يفخروا بالأنتساب لغير الأكراد . وعندما بدأ الصراع العثماني الصفوي حاول أمراء سوران أن لا يتدخلوا . قدر الأمكان لذا نالوا عداء الأثنين فعاملهم العثمانيون بقسوة وذلك بقتل من تبقى منهم فكان أولهم الأمير يزدين شير «عزالدين شير» وأخرهم الأمير محمد باشا الكبير . أما الفرس فلم يستطيعوا أن ينالوا منهم أبداً . فأستحقت الأمارة مدح المكرياني ، من أن «في كل صفحة من صفحات تأريخها الألف من مفاخر الكرد وأمجادهم وتستحق كل أطراء وتقدير»[2]

لقد بدأ عهد جديد من التنظيم والأستقرار والتقدم في الأمارة السورانية بتولي الأمير محمد الحكم عام ١٨١٣ م الذي أخذ بتثبيت سلطته في راوندوز أولاً ثم سيطر على جميع عشائر المنطقة بأكتساح قلاع رئاساتها الهزيلة ، ثم أخضع أمراء بادينان وأقتطع أجزاء من أمارتي بابان وبوتان ونجح في توسيع سلطته لتشمل منطقة شاسعة تمتد من سنجار الى القرى الكردية في أذربيجان الأيرانية . ومن حصن (كيف) الى نهاية الأراضي التابعة لمدن مخمور والكوير والتون كوبري . وهكذا أصبح الأمير على حد قول مارك سايكس : سيد البلدان الواقعة بين الحدود الشرقية للدولة العثمانية والموصل في بداية القرن التاسع عشر[3] .

هذا وأشتهر الأمير الكبير بتنظيم الأدارة في أمارته وأستتباب الأمن فيها ، فحقق بين الناس العدالة في دائرة الشريعة الأسلامية ، ويقول لونكريك أنه : أقام في أمارته الضبط الغير الخاطئ بقسوته العادلة . ولم يكن مثل هذا الضبط معروفاً في مثل هذه الأصقاع ، وقد كان الكل يقايس هذه الحالة بالفوضوية والأرتباك اللذين كانا سائدين في العراق[4] وبشهادة العديد من المؤرخين والكتاب ، أن راوندوز غدت في عهده مركزاً للحركة التحررية الكردية في ثلاثينات القرن الماضي بفضل أهتمامه في دعم الزعماء الأكراد الذين يريدون التخلص من

السلطان العثماني والشاه الأيراني . وأقامته العلاقات الدبلوماسية مع محمد علي باشا والي مصر . . فالأمير كان يسعى للسيطرة على كردستان وخلق كردستان المستقلة ونضاله كان موجهاً ضد الدولة العثمانية التي كانت سوران تقع ضمن حدودها . وضد سلطة الشاه القائمة في الأراضي الكردية المجاورة لها[٥] .

«الهجوم العثماني على كردستان ١٨٣١ - ١٨٣٦»

تنامت النزعة المركزية للدولة العثمانية خاصة في فترة حكم السلطان محمود الثاني «١٨٠٨ - ١٨٣٩» الذي أفتتح أعماله بالقضاء على الأنكشارية وأنشاء الجيشر النظامي الجديد . وأراد فرض المركزية على الولايات العثمانية وممتلكاتها بأعادة الحكم المباشر اليها وكان باشوات عظام قد أستقلوا في جهات نائية عن تلك الدولة وصاروا يحكمون ولاياتهم مستقلين هازئين بسيادة السلطان وكانت الرعية تفضلهم على الولاة الأتراك الغرباء مما أدى الى تقلص النفوذ العثماني وتكوين الشعور بالهوية المحلية الذي تزايد في القرن التاسع عشر وأتخذ الصفة القومية . ففي العراق كان ولاة الموصل الجليليون شبه مستقلين . وأصبح أستقلال بغداد في عهد داود باشا . لا يطاق ولا يأتلف مع الأحترام الذاتي للأمبراطورية العثمانية . وكان بنو كعب في المحمرة خارجين عن أرادة السلطان . والشيخ صفوك الفارس شيخ عشائر شمر الجربا يسعى للأستقلال «بالجزيرة العراقية» . وفي كردستان كان أمير سوران قد أعلن أستقلاله منذ عام ١٨٢٨ م . وكان أمراء بوتان وهكاري وبدليس . . شبه مستقلين . ولما كانت مقدرات الدولة العثمانية في هذه المناطق معلقة بمصير هذه القوى ، التي كانت تحول دون تقوية قبضة الحكومة على أجزاء هامة من الأمبراطورية . وخوفاً من تنامي هذه القوى وأستقلالها تدارست القيادة العثمانية الموقف فوجدت أن الأمر يتطلب حملة عسكرية تتوفر لها كافة مستلزمات النجاح . وأختارت لهذه المهمة علي رضا اللاز ، ولم يقع الأختيار عليه الا بعد أن رفض غيره الأضطلاع بالمهمة العسيرة ، كان علي رضا أكثر الولاة معرفة بأحوال العراق . فقد كانت له صداقات وصلات بالعراقيين وعلى رأسهم والي الموصل قاسم العمري وبعض زعماء المماليك وشيوخ العشائر العربية والكردية من الناقمين على حكم داود باشا ، ونظراً لصعوبة مهمته فأنه نال كل التفات ووجه اليه عنوان قائد الجيش «سر عسكر» تقوية لنفوذه . فأصدر الخط الهمايوني وجاء في فقرة منه «تذاكر المجلس . بخصوص أعطاء عنوان سر عسكر الى الوالي تقوية لنفوذه وأعظاماً للمسألة . وبياناً لمكانته وأهمية القضية التي يعالجها[٦] ووافق الباب العالي على جميع طلباته فزود بستة الاف كيس من النقود[٧] ونص فرمان علي رضا على حكم بغداد وحلب وديار بكر والموصل وهي مجموعة من الولايات لم يسبق أن أنعم بحكوماتها على حاكم واحد وفي وقت واحد[٨] وجعل بصحبته كلاً من يحيى باشا والي ديار بكر وعلي شفيق والي أرضروم وموظفين كثيرين ومتسلمين وأكابر رجال الكرد والأنحاء المجاوره .

تحرك علي رضا من حلب في أوائل شباط ١٨٣١ على رأس قوات نظامية بلغ تعدادها عشرة الاف مع تسعة مدافع ميدان بالأضافة الى كتيبتين من خيالة الأقطاعيين وعدد كبير من غير النظاميين الذين كثروا وبدأوا يتوافدون عليه لأنه كان كلما بلغ محلاً أغرق على أهله الهبات وأسنى لهم العطايا ، كما أغدق الأموال والهدايا على رؤساء وشيوخ العشائر وهو في طريقه فأنضم الى جيشه صالح جلبي الزهيري واحد كبراء عشيرة شمر الجربا من أتباع الشيخ صفوك الفارس . وسليمان الغنام أحد شيوخ عشيرة العقيل . وكانت هاتان العشيرتان من عشائر العراق الصعبة المراس ذات الشهرة الواسعة في ميادين القتال . فبلغ عدد أفراد جيش علي رضا عشرين الفاً . كذلك وضع قاسم العمري والي الموصل وعدو داود باشا اللدود . كل أمكاناته تحت تصرف علي رضا[٩] .

هذا وصدرت الأرادة السلطانية الى الصدر الأعظم السابق سليم محمد باشا بأن يذهب الى فيلق حلب ليكون قوة ظهر فصار قائداً للفيلق الثاني وسار بسرعة الى أنحاء حلب[١٠] ، أخذ علي رضا خلال مسيرته يرسل الكتب بصورة مستمرة الى الفئات المتبرمة في العراق وكردستان ، وبذل الأموال وأستطاع بكرمه وقدرته على أعطاء الوعود المطلقة أيضاً[١١] أن يجتذب قلوب الكثيرين كما أنتشر دعاته بين الناس يثبطون العزائم عن المقاومة ويدعونهم الى طاعة السلطان . وبعث رسله يحملون الأوامر التي تتضمن الرأي والأمان للمماليك وسائر الأهلين .

لقد كانت مهمة علي رضا شاقة . فلم تكن مهمته القضاء على داود باشا فقط كما تراءى للكثير من الكتاب والمؤرخين . فقد كان عليه بالأضافة الى هذا القضاء على الزعامات الوطنية التي سبق ذكرها وأخماد حركات عشيرة العقيل وأعادة الحكم المباشر الى العتبات المقدسة . هذا كله الى جانب ضخامة الأعباء التي يتطلبها مشروع أعادة الحكم المباشر وأرغام تلك القوى على قبول النظام الجديد .

توجه علي رضا باشا الى بغداد للقضاء على أخطر المستقلين كبداية لتصفية البقية . ولم يكن الأستيلاء عليها أمراً هيناً بالنسبة لما كان عليه

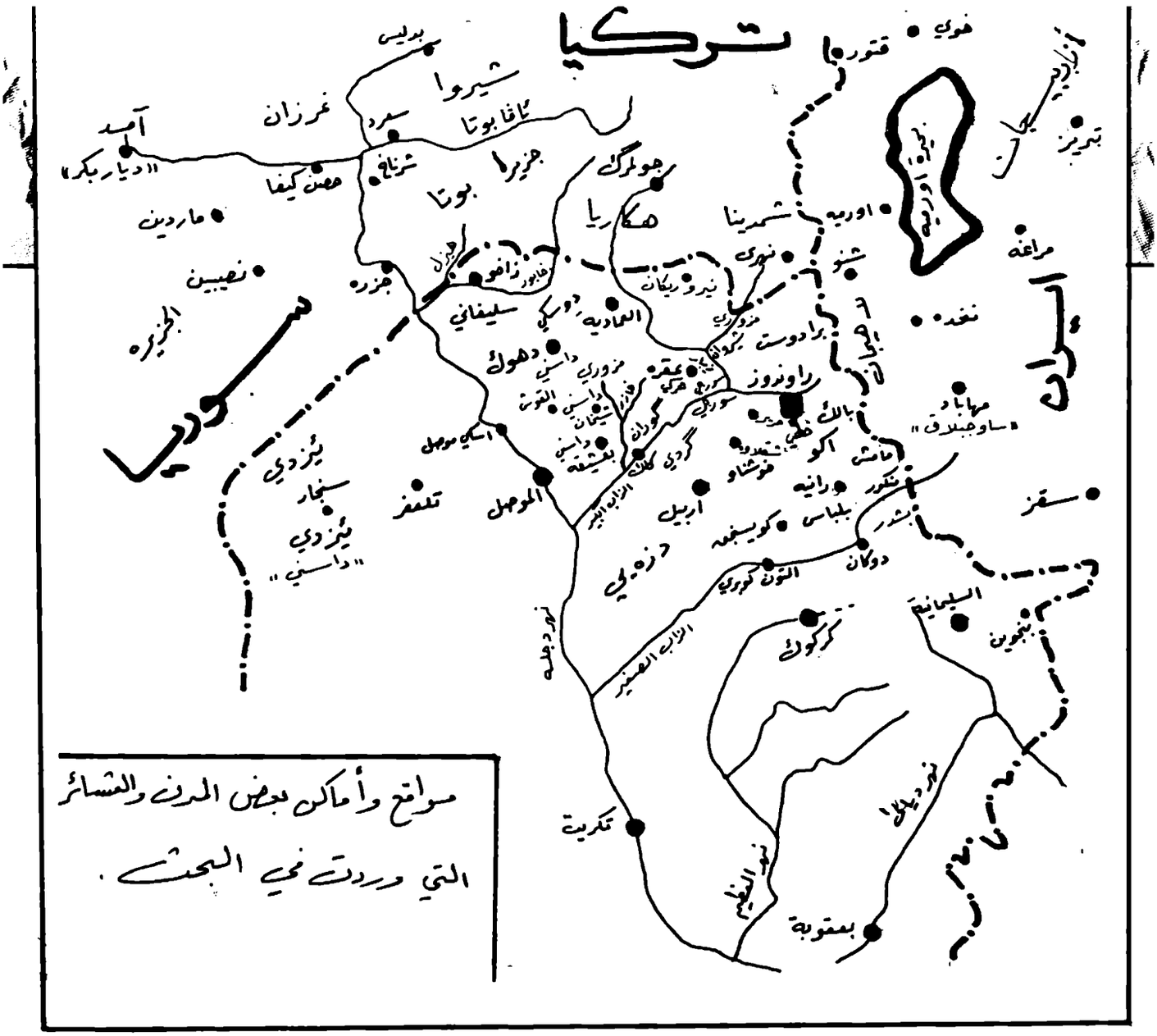

مواقع وأماكن بعض المدن والعشائر التي وردت في البحث .

داود باشا من القوة والمنعة فقد شاءت المقادير أن يكتب لعلي رضا الفوز . . ففي الوقت الذي كانت بغداد تستعد للوقوف في وجه القوات الزاحفة داهمها الطاعون الوبيل وطغت عليها مياه نهر دجلة . فكان طبيعياً أن تقف – نتيجة لتلك الكوارث - مكتوفة اليدين وأن تفتح أبوابها لجيش السلطان .

زاد نجاح علي رضا في القضاء على حكم داود باشا من شهرته ودفعه الى البدء بالقضاء على أمير سوران . فأختار لهذه المهمة أحد أشرس وأقسى ضباط القوة الغير النظامية والمدعو محمد أينجه بيرقدار «حامل العلم النحيف»[١٢] وعينه والياً على شهرزور عام ١٨٣٣[١٣] فكان أول وال عثماني في المنطقة منذ القرن السابع عشر . وأختير لهذا المنصب بسبب قسوته وكرهه الشديد للكرد «حيث كان همه الوحيد عند تعيينه تحطيم الدويلات الكردية»[١٤] .

قدر أمير سوران محمد باشا الكبير خطورة ما يجري حوله . . فبدأ يتحرش بالوالي الجديد قبل أن يعزز مركزه . فأدرك علي رضا باشا هنا أن الظروف غير ملائمة لتعيين والي عثماني على شهرزوز خوفاً من أن يمتد نفوذ السوران الى كركوك ، خاصة وأن أميرها كان محبوباً فيها ويمارس نفوذاً أدبياً على المدينة وعشائر المنطقة ، كما لم يكن تحت يد البيرقدار من القوات العسكرية أو من القوات المحلية ما يمكنه من تثبيت أقدامه في هذا المحيط الكردي ، لذا نقل البيرقدار الى الموصل عام ١٨٣٤ .

ولجعل الموصل قاعدة من قواعد الهجوم على القوات المصرية في الشام بالتعاون مع الجيش العثماني المحتشد في ديار بكر كان على الدولة العثمانية أن تسيطر على كردستان وتخضع أمير سوران الذي كان بتعاونه مع محمد علي باشا يهدد هذه القوات من الخلف . فلم يكد البيرقدار أن يستقر في الموصل حتى بدأت السلطات العثمانية تحثه وتحث القوى العثمانية المجاورة للأمارة السورانية على التجمع لتوجيه ضربة قاضية لها[١٥] فعنى ببناء ثكنة ومقر للحكومة وأنشأ مصنعاً للمدافع والذخيرة[١٦] وأخذ يطبق قوانين التجنيد العسكرية قبل أن تطبق في أي جزء من العراق . فجند الأهالي من غير مراعاة للسن والحال «فكان يبث عسكراً في

رسول باشا
حكام راوندوز

شوارع المدينة ليأتوه بمن يصادفونه أياً كان[١٧] وواجه البيرقدار مقاومة عنيفة من جانب الأهالي ضد محاولاته لجمع الرجال للجندية . ولم يكن هناك مفر من أن يطبق قوانينه بحد السيف وفعلاً هدد بضرب المدينة بالمدفعية أن لم تذعن للقوانين العسكرية[١٨] .

بعد هذا التهيؤ شرع علي رضا والبيرقدار وبأوامر من الباب العالي يتخذان الخطوات للقضاء على أمارة سوران . فكان «السلاح الديني» أول أسلحتهم وأمضاها . وأتصل علي رضا برؤساء العشائر ليكسبهم الى جانبه ، وليهيئ تأييداً دينياً للعثمانيين ضد أمير سوران . أتصل بعدد كبير من علماء الدين وشيوخ الطرق الدينية ليستخدمهم في تحقيق مآربه السياسية ، ولما كان علي رضا مشهوراً بسخائه في منح الأراضي والقرى والأموال ، فقد منح الذين أيدوه الكثير منها . ومن الجدير بالذكر هنا . أن من جملة الذين أتصل بهم لكسب تأييده الديني ضد أمير سوران . الشيخ نورالدين البرزكاني «١٧٩٠ - ١٨٥١» الذي وقف موقفاً مجيداً ومشهوداً برفضه مقابلة علي رضا قائلاً لرسوله الذي جاءه يلتمس ذلك «أنا لا أواجه ظالماً بسبب عرضي عن الدنيا» كما وأمتنع الشيخ الجليل عن ذم أمير سوران ، مضحياً بخمس عشرة قرية كان علي رضا قد وعده بها أذا فعل[١٩] .

وأستعد البيرقدار لمهاجمة الأمارة السورانية وأرسل له علي رضا باشا جيش بغداد ، ويذكر أن البيرقدار رأى أن خير طريقة للتخلص من الأنكشارية هو أن يسير بهم الى محاربة حاكم العمادية[٢٠] . بدأ بضرب أطراف الأمارة وحاول السيطرة على الطرق الرئيسية المؤدية الى عاصمتها راوندوز فأوقع السيف والنار في كل قرية مر بها وساعدته الظروف في أحتلال العمادية ثم حاول الزحف على راوندوز فأجبر السكان بالقوة للأنخراط في جيشه وعندما توجه نحوها أصدر أمير سوران أوامره الى حاكم دهوك أسماعيل باشا وحاكم العمادية رسول باشا لرد البيرقدار . وأرسل من راوندوز جيشاً بقيادة رشيد بك . فكانت المعركة الفاصلة قرب الزاب الكبير «زبى بادينا» حيث هزم فيها جيش البيرقدار ولاذ هو بالفرار ووقعت غنائم كثيرة في أيدي القوات السورانية التي أستعادت العمادية . وكرر البيرقدار محاولته فباءت بالفشل ثانية . وعندما لم يستطيع الوصول الى نتائج حاسمة في ميدان الحرب . شرع ينتقم من العزل وبعض رجال الدين وزعماء العشائر من الذين لم يساعدوه أو وقفوا على الحياد فدعاهم الى مقابلته في قرية «كرد عرب» تل العرب[٢١] على نهر الكومل بعد أن أستأمنهم على أرواحهم . لكنه أجرى لهم مجزرة مروعة حيث أحاط بهم جنده وأبادوهم وقطعوا رؤوس بعضهم والقوها في النهر . وسبيت نساؤهم وأطفالهم وبيعت في أسواق الموصل[٢٢] . ونجا من هذه المذبحة الشيخ نورالدين البريفكاني حيث رفض أيضاً مقابلة البيرقدار .

لقد حاول الكرد أن ينتقموا من البيرقدار وذلك بأغتياله في معسكره ، لكنه نجا بأعجوبة وراح آخر ضحية له[٢٣] . وتذكر المراجع الكردية أن بعض رجال الدين وزعماء العشائر تعاونوا مع البيرقدار . ولم يحرضوا الأكراد على قتاله ورد ظلمه . يظهر هذا من رسالة حاكم دهوك الى سكان العمادية والملا يحيى المزوري يطلب فيها منهم أن لا يساعدوا الأعداء وأن لا ينسوا نساء وأطفال الكرد الذين سباهم البيرقدار وباعهم في أسواق الموصل[٢٤] .

بعد مرور سنة على عقد صلح «كوتاهية» في نيسان ١٨٣٣ بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا . تفرغت الدولة العثمانية لتصفية الأمارات الكردية «سوران ، بوتان ، هكارى ، بدليس ، بابان . .» تأميناً لظهر الجيش العثماني عندما تبدأ الجولة الثانية من المعارك مع الجيش المصري ، حيث أن صلح كوتاهية لم يكن حقيقياً بل مجرد هدنة أستعد خلالها الطرفان للحرب ، فأنتدبت الدولة السردار الأكرم محمد رشيد باشا[٢٥] الصدر الأعظم السابق ووالي سيواس للقضاء على إمارة سوران وجهزته بجيوش كبيرة من العساكر النظامية الجديدة وزودته بصلاحيات واسعة ، وكانت هذه فرصته لأعادة ثقة السلطان به ، فقد سبق أن هزم ووقع أسيراً بيد الجيش المصري في معركة قونية عام ١٨٣٢ وأن أخفاقة هذه المرة يعني تعرضه للتنكيل الوحشي الذي كان يتعرض له القادة العثمانيون عند أخفاقهم أكثر من مرة . لذا عمل بهمة ونشاط في تصفية حساباته مع الأكراد الذين كانوا قد أضعفوا مقاومة العثمانيين لجيش مصر في سوريا . . فتحرك في صيف عام ١٨٣٤ بجيشه البالغ أربعين الفاً نحو

كردستان ، وتهافت الوجهاء وأعداء الأمير وتنافسوا في التودد اليه . أمثال محمد مسرفي ومحمود خوشناو وبايزيد بك بابشتي الذي كان قد هرب من سوران الى أستنبول والتجأ الى السلطان محمود الثاني خوفاً من بطش الأمير محمد باشا الكبير . أصبح البابشتي دليلاً وحلقة وصل بين رشيد باشا وعشائر الكرد[٢٦] .

كانت مهمة رشيد باشا السيطرة على سيواس وملاطية ثم الأتجاه شرقاً لتصفية حساباته مع جميع الرؤساء الكرد قبل الوصول الى عدوه الأكبر أمير سوران ، فسمح لجنوده الأتيان بجميع الأعمال . فكان جيشه يخلف وراءه الخراب والدمار حيث قتل الأف النساء والأطفال وأحرق مئات القرى ونكل رشيد باشا وحافظ باشا بأهالي سعرد وماردين ونصيبين والجزيرة وأتاك وموش وسنجار . وقاوم الأكراد جيوش رشيد باشا فقد غدت منطقة أتاك في نهاية عام ١٨٣٤ قاعدة للنضال ضد الجيش العثماني وأرسل اليها رشيد باشا عشرة الأف فارس وستين مدفعاً من قواته وبعد معارك دامية أستخدمت فيها القوات العثمانية المدافع بشكل فعال ، أستطاع رشيد باشا القضاء على مقاومة الكرد وأسر الف كردي من ضمنهم قائد الأنتفاضة «رجب بك» الذي أرسل مع بعض أعيان الكرد الى أستنبول . وبسبب المقاومة العنيفة التي لقيها الجيش العثماني في جزيرة بوتان بقيادة الأمير بدر خان ، أمر رشيد باشا بتدمير مدينة الجزيرة ، مركز أمارة بوتان ، بالمدافع ثم دخلها الجنود العثمانيون فنهبوها[٢٧] ، وأخضعت الجيوش الزاحفة العشائر اليزيدية في سنجار والتي كانت تحت حكم أمير سوران بعد أن قتلت ثلاثة أرباع سكان جبل سنجار وساقت الأولاد الى المدن حيث عرضوا للبيع لتزيد أثمانهم في ثروة الذين غمسوا يدهم في دم هؤلاء المساكين على حد قول الصابغ[٢٨] . وبعد أن أحتلت تلك الجيوش تلعفر عبرت دجلة من منطقة أسكي موصل[٢٩] متوجهة الى راوندوز . وأزر هذه الحملة البرقدار وكان علي رضا قد أرسل من بغداد أرتالاً من الجيش الى الموصل ، ولم يحضر بنفسه لأنشغاله في قمع أنتفاضة عشيرة العقيل التي قامت في نهاية عام ١٨٣٤ ويذكر فريزر أن علي رضا في هذه الفترة كان لا يستطيع الخروج من بغداد[٣٠] .

يقول الدكتور نوار : أن العثمانيين بعد هذه الحركات أصبحوا قادرين على تنفيذ خطة واسعة النطاق لغزو الأمارة السورانية[٣١] . لكن تقدم القوات العثمانية كان بطيئاً وتطلب المسير الى راوندوز عدة أشهر بسبب مقاومة الكرد لها وأنتصارهم عليها في بعض المعارك . لقد أنتشر جيش رشيد باشا على غير نظام أو تعبئة في الشعاب والمناطق الوعرة . فكان من الصعب عليه القيام بهجوم جبهي اذ لم يسمح له الأكراد القيام بذلك بأظهارهم مقاومة عنيدة وتوسلهم بحرب أنصار واسعة النطاق . . كما أقبل شتاء كردستان القاسي الطويل ليضع العراقيل أمام تقدم القوات الغازية التي أخذت تعاني من قلة التموين أذ أمتنع السكان عن مساعدتها وأخفوا التموينات والاحتياطات[٣٢] .

أدرك رشيد باشا أنه لا يستطيع محاربة أمير سوران وأن تقدمه الى أعماق كردستان لا يخلو من مخاطرة . فأجبر على أيقاف التقدم لأجل أعادة تنظيم صفوف قواته لحين مجيء الربيع ووزع قواته في الشتاء على المدن والقرى لتأمين المواد الغذائية وأستقر هو في ماردين . ويذكر المعاصرون أن أسعار المواد الغذائية ولاسيما الخبز تضاعفت في أرضروم وماردين والمناطق الأخرى التي أستقر فيها الجيش العثماني . ولكي يضمن رشيد باشا أنتصاره أستغل فترة الشتاء لمضاعفة أعداد قواته فأخذ يعمل على زيادتها بتجنيد الآلاف من السكان في جيشه أجبارياً . وأتبع سياسة التهجير الممقوتة وذلك بترحيل بعض العشائر الكردية الى المناطق البعيدة لتأمين نجاحه بأضعاف نضال ومقاومة الكرد ، وأقترنت عمليات الترحيل كالعادة بالقسوة والتدمير ، هذا وكان لدى رشيد باشا فرمان من السلطان يطلب من قوة قارص وأرضروم الأنضمام اليه . وأنتشرت الأخبار عن أرسال ثلاثين مدفعاً وثلاث فرق من الجيش من أستنبول اليه . ان حجم هذه التحضيرات يشير الى اهمية الحملة ليس بالنسبة لرشيد باشا بل للسلطان ايضا الذي امر والي الموصل وبغداد رسميا ان يكونا على اهبة الاستعداد للانضمام الى قوات رشيد باشا . ورغم حماس العثمانيين هذا ونشاطهم في اعداد الهجوم فقد تطلب حجم هذه الاعمال والاستعدادات عاما كاملا ، فلم يهاجم رشيد باشا في ربيع عام ١٨٣٥[٣٣] .

أما أمير سوران الذي كان يستعد لمواجهة الجيش العثماني ، فأنه عندما تأكد من عدم هجوم العثمانيين عليه في ربيع ١٨٣٥ قرر بالمقابل – رغم سوء ظروفه – السيطرة على بعض المناطق الكردية في ايران ففي تشرين ١٨٣٥ هاجم قواته ايران واحتلت أقليم «فتور» القريب من الحدود ، بعد سحقها قوة أيرانية أرسلت ضدها من «خوي» وتحصنت في المناطق المحتلة ، وفي الوقت نفسه قاد الأمير قوة كبيرة وغزا ممتلكات أيرانية في أنحاء «سلدوز» ونهب عشرات القرى[٣٤] . وعلى الرغم من أن الأمير لم يرغب في المغامرة وتعقيد الأمور مع أيران وأقتصر نشاطه على

منطقة سلدوز . الا أن عمله هذا لم يكن في صالحه لأنه أثار غضب أيران التي رفضت مساعدته فيما بعد . بل ووقفت ضده كما سنرى . ولسنا نعرف على اليقين ما الذي دعاه الى القيام بهذا العمل وفي تلك الظروف بالذات . هل كان يهدف من وراء عمله أختبار القوة الأيرانية في أذربيجان ؟ . أم أراد التظاهر بالقوة وعدم المبالاة بالخطر العثماني أمام أيران ؟ . أو لعله أستغل فترة وفاة «فتح علي شاه القاجاري» عام ١٨٣٤ حيث أعقب وفاته نزاع عائلي على الحكم بين الأبناء تدخلت فيه روسيا وبريطانيا ، أدى الى أنشغال أيران وضعفها . . مهما تكن الأسباب فأن عمله أثار غضب الأيرانيين وأن هجومه الأخير لم يكن ضرورياً بالمرة .

عندما تسلم رشيد باشا قوات جديدة تهيأ في ربيع عام ١٨٣٦ ليشن الهجوم النهائي على أمارة سوران . فقرر توجيه ضربته من الغرب والقضاء على حليف الأمير محمد ، بدر خان البوتاني وقام بهذه المهمة حافظ باشا مشير الأناضول الذي منع خان محمود من تقديم العون لأمارة بوتان من الشمال ، ورغم تدمير مدينة الجزيرة عاصمة الأمارة بالمدافع . فقد فشل حافظ باشا في القضاء نهائياً على أمارة بوتان ثم الألتقاء بجيش رشيد باشا في العمادية ، ليهيئا الضربة الكبرى لأمير سوران . حسب الخطة التي وضعاها قبل التحرك .

أما رشيد باشا فقد أحتل مدينة زاخو بعد أن ضيق الحصار على حاكمها الذي أستنجد براوندوز وفضل الأنتحار على الوقوع في الأسر . وأستسلمت العمادية للقوات العثمانية بواسطة أسماعيل باشا . لقاء موافقة السلطات أن يتولى الحكم فيها ، وترك العثمانيون مقاليد الأمور في العمادية في يد أسماعيل باشا حتى يضمنوا هدوء المنطقة خلال العمليات العسكرية ضد أمير سوران[٣٥] . بعد العمادية توجه رشيد باشا الى عقره بعد أنضمام جيش الموصل اليه . وصمدت عقره ثلاثة أشهر ، لكن خيانة بعض رؤساء عشائر المنطقة أجبرت حاكمها «بيربال جاويش» أن يترك القلعة ليلاً وينسحب الى راوندوز[٣٦] .

تابعت القوات العثمانية زحفها فعبرت نهر الزاب الكبير بأتجاه راوندوز ، وحسب الخطة العثمانية كان على علي رضا باشا والي بغداد أن يزحف بقواته الى راوندوز عن طريق كركوك – أربيل ، ليلتقي بقوات رشيد باشا والبيرقدار في سهل حرير ، فهاجم علي رضا إمارة سوران من جهته فسقطت أولاً ألتون كوبري «بردى» وكويسنجق وصمدت أربيل وقلعتها بضعة أشهر ولاقى باشا بغداد صعوبة بالغة في أحتلالها بسبب تحصينها الجيد ودفاع حاميتها المستميت . وعندما دخلت القوات العثمانية المدينة وقلعتها أعملت السيف في حاميتها . حتى أن الشاعر الشيخ صالح التميمي شبه فتح قلعة أربيل بفتح المعتصم العباسي لحصن عمورية . في قصيدة مدح فيها علي رضا باشا بمناسبة أنتصاره وأخضاعه أربيل . أرى من المفيد ذكرها هنا : –

لا تـرو عن فـتح عـموريـة خبرا ... فـفـتـح أربـيـل مـا أبقى لها أثـرا
لوأن مـعـتـصـمـاً تعدوه صارخة ... بـقـطـر أربـيـل عـن أدراكـهـا قصرا
دع ما سمعت وحدث بالذي نظرت ... عيناك فالصدق مقرون بمن نظرا
ما فوق فتحك الا فتح من نزلت ... عـلـيـه سورة نصرالله فـأنـتصرا

أما عن قلعة أربيل وحصانتها وقوتها فيقول الشاعر :

صـمـاء سامـيـة الأعلام غـاصبها ... قد كاد يبلغ حد الكفر أو كفرا
غمامـة لا يـدانيـهـا الـفهام علا ... ولامـع البرق مـع أرجـانها أستترا
ما صافح الريح من اركانها حجر ... الا ويـقـدح من حـافـاتها شررا
مـا في جوانبها مـاء لـذي ظـمـأ ... وليس في أرضها ما ينبت الشجرا
مذ كانت الأرض ما فيها جرى نهر ... لـكـن سيـفك أجـرى بـالـدما نهرا
كـانت لهم وزرا فـأنقضى عن قدر ... بـسـطش الوزيـر لها أبقى لهم وزرا
كـانت هي الهبل الأعلى وكم صنم ... سما «عـلـيـاً» بـالـكـسر فـأنكسرا
وأن من خالف السلطان ما ربحت ... يومـاً تجارتـه بـل أنما خسرا

لو طار سهمك في أربيل عن هدف

فالصدر تالله بالكردي ما صدرا[٣٧]

نلاحظ في القصيدة أن الشاعر التميمي صور سكان أربيل والمدافعين عن قلعتها غاصبين قد بلغوا حد الكفر أو كفروا لتمردهم على السلطان ، وقد شبه القلعة بهبل ، الصنم المشهور في مكة المكرمة – وشبه علي رضا باشا اللاز بالأمام علي بن أبي طالب «ع» في تحطيم الأصنام وفي القصيدة دلالات ومؤشرات تأريخية وجغرافية أخرى .

ترك علي رضا وراءه الأشلاء والخراب والدمار في أربيل وتوجه الى شقلاوه وقد ساعده أعداء الأمير في أحتلالها وكان أبرزهم المدعو «محمود بن عثمان بك خوشناو»[٣٨] . وأستعدت راوندوز للمقاومة وقام الأمير بتحصين «كلي علي بك» تحصيناً متيناً وحصن كل المسالك الى المدينة وأقام التحصينات على جبل «سبيلك» وداخل المدينة والقلاع المحيطة بها وشحنها بالمقاتلين وحشد قواته في مضيق «علي بك» فأصبح من المستحيل أقتحامه[٣٩] . ثم خطط للمعركة الحاسمة في سهل حرير . وكانت القوات العثمانية الزاحفة تقاوم من قبل السكان المحليين أينما مرت . وكان الأكراد يهاجمون قوافل تموين هذه القوات التي كان من الصعب عليها بسبب من حرب العصابات التي شنت عليها ، أن تحتل وتمتلك الحصون

والقلاع فأخذت بتخريب القرى والحصون وفرض الحصار الأقتصادي عليها .

صحيح أن جيش أمارة سوران واجه عدواً متفوقاً في العدد والعدة ، الا أن معاقله المنيعة وأحكامه في الدفاع عنها وأشرافه منها على تحركات الأعداء وطبيعة الأرض ومشاكل التموين التي كان يعاني منها جيش رشيد باشا ، كان له أثره في موازنة قوة الجيشين وتساوي الكفة تقريباً . فبشهادة القائد الألماني «فون مولتكه»[٤٠] ، الذي كان موجوداً أنذاك في تركيا ويشرف على العمليات الحربية ، فأن أحتلال حصن كردي في سفوح الجبال وعلى القمم كان يستغرق من ٣٠ - ٤٠ يوماً[٤١] .

أن التفوق العثماني وأستغلال القيادة العثمانية ظروف العداء بين زعماء العشائر الكردية في هذه الأوضاع أستفادتها منهم حيث أنضم اليها من باع نفسه بالأمتيازات ، حتم على جيش الأمارة أن يخوض معارك صعبة بسبب وجود هؤلاء الأقطاعيين الذين كانوا يعرفون جيداً الممرات الجبلية وتحصيناتها[٤٢] . ورغم كل هذا لم يجرأ رشيد باشا بالدخول في معركة حقيقية مع أمير سوران وباءت جميع محاولاته في أقتحام راوندوز بالفشل .

وفي الوقت الذي كان يزداد الضغط العثماني على راوندوز من الغرب ، قرر الأيرانيون الهجوم أيضاً عليها من الشرق وحاولت بريطانيا تنسيق الهجوم الأيراني العثماني لكنها فشلت بسبب رفض العثمانيين التعاون مع أيران - سنبحث هذا الموضوع لاحقاً - وعندما تأزم الوضع . . وخوفاً من أستدراج الأيرانيين للأمير محمد وتعقد الأمور ، حرك رشيد باشا كل قواته نحو راوندوز ، لكنها أضطرت الى الأنسحاب أمام ضغط الجيش السوراني الذي كان يقوده الأمير أحمد ، وكان لهذا الفوز أثر معنوي كبير في نفوس الجند ، فلم يبق أمام رشيد باشا ثمة وسيلة بعد فشل جهوده المتواصلة في أقتحام عاصمة سوران ، سوى اللجوء الى الخدعة والحيلة .

يقول الصايغ : بعد أن حشد القادة العثمانيون قواتهم في سهل حرير أدركوا عجزهم من القاء القبض على الأمير العاصي لمناعة حصونه وكثرة جنوده ، فلجأ رشيد باشا الى الحيلة ، «ورأى خير ذريعة للقبض عليه أستئمانه بالحيلة فراسله وأمنه حتى وثقه من نفسه»[٤٣] .

أن اللجوء الى الحيلة والخدعة وشراء الذمم والضمائر كان عادة للقوات العثمانية عندما تفقد الأمل في أحراز نجاح سريع على خصومها لشق صفوفهم ، ويؤكد المؤرخون أن السلطان محمود الثاني بالذات أصطنع القوة والحيلة في تحطيم قوة معظم الباشوات الذين كانوا يطمحون للأستقلال بأوطانهم .

أن رشيد باشا الذي كان مطلعاً على التوجهات الدينية للأمير السوراني ، أستطاع أن يستغلها لصالحه ، لذلك فقد أرسل اليه رسالة يخاطبه فيها بأسلوب ديني رقيق أن يكف عن إراقة دماء المسلمين وأن لا يتطاول على سلطة الخليفة أقدس ما يعتز به المسلمون . ويذكر الموكرياني أن : رشيد باشا أرسل الى الأمير فرماناً هما يونياً زائفاً ، مكتوباً باللغة العربية حشاه بالأيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وجاء فيه : «أني أطمئنك وأعطيك عهداً وميثاقاً كالعهود والمواثيق التي أعطاها الخلفاء الراشدون للمسلمين بأن لا يجري بحقكم ما لا ترضون ، ولا يقع من جانبنا ما لا يوافق رغباتكم ، والشيء الوحيد الذي نريده منكم أن تدخلوا تحت ظل أمير المؤمنين وظل الله على العالمين ، الذات السلطانية المباركة . فتنجوا من كل بلاء ومصيبة وتحيوا في الدارين سعداء آمنين ، أعطيكم العهد الذي أعطاه الخلفاء الراشدون لأمراء المسلمين بأن تكونوا مطمئنين لا تهابون أحداً . وسأرعاكم كما أرعى أولادي تحت جناح رافتي وشفقتي وعدلي وأحصل لكم على فرمان همايوني بتنصيبكم أميراً لأمراء سوران مصدقاً بمنحكم الخلع والنياشين . وأعطيك كل ما تريد وأقضي لك كل حاجة وأساعدك عند كل ضائقة ، وأنصرك على أعدائك ، وسيوفي بهذه الوعود كلها بعد مجيئك الى الباب العالي»[٤٤] .

كما كتب رشيد باشا الى علماء الدين المحيطين به - وكانوا على جانب كبير من النفوذ - لينصحوه بتقديم الطاعة»[٤٥] . وتمكن من أستمالة بعضهم بخاصة الملا محمد الخطي أقرب العلماء الى الأمير ، ويذكر المكرياني : أن السلطان العثماني كان قد أرسل تمهيداً للحملة منشوراً همايونياً بأسم الخلافة الى كل من الملا محمد الخطي والملا يحيى المزوري والملا عزرائيل الجزيري ليساعدوا رشيد باشا في مهمته[٤٦] .

نشطت القيادة العثمانية في أحاطة راوندوز العاصمة بالدسائس والمؤامرات للأيقاع بالكرد وسحق عاصمتهم ، وأخذ دعاة رشيد باشا والملا محمد الخطي وأعوانهما يندسون بين الجند والناس ينشرون تلك الرسائل مثيرين فيهم العاطفة الدينية والشعور العثماني لتثبيط عزيمتهم عن المقاومة ، وحاول بعض رجال الدين أقناع الأمير بالخروج من الأزمة بدون سفك المزيد من الدماء ، وذلك بالأستسلام وهنا وبأتفاق معظم المؤرخين والكتاب الأكراد ، كان كبيراً الدور الخياني الذي لعبه مفتي سوران ومشاور ومعتمد الأمير ، الملا محمد الخطي[٤٧] .

رفض الأمير كل الأقتراحات بالتفاوض . وظهر خلاف واسع بينه وبين الملا الخطي . وعلى الرغم من عدم سماح رجال الدين للأمير بقتال العثمانيين ، فأن قائد الجيش الأمير أحمد لم يذعن لهم وأصرك على القتال وتخاصم مع الخطي ورفض دعوته وناقشه فيها . وبعد خلافات كلامية عنيفة ، وصل الأمر بالخطي . تجاه رفض الأمير وشقيقه وكبار الضباط للمفاوضات والتسليم . الى أن يلقي خطبة مطولة في صلاة الجمعة وفي الجامع الكبير ، أفتى فيها بعدم شرعية مقاومة جيش خليفة المسلمين والأشتباك معه ، وأن «كل من يحارب جيش الخليفة غير مؤمن وزوجه منه طالق» . فسرت هذه الفتوى بين السكان والجيش حيث بث رشيد باشا عملاءه في جميع المناطق وبين قوات الأمير لنشرها . فأشاعت الفتوى وأقاويل أولئك العملاء روح الخور والأستسلام في النفوس ، وما أزهد الكرد في تصديق مثل هذه الأمور . . فأهتزت معنويات الجند والمقاتلين وتبخرت حماستهم وذهبت روح القتال عن الجيش وتخلى الكثير عن القتال وأنفضوا من حول الأمير الذي بدأت نهايته تلوح في الأفق ، ونتيجة للخيانة فتحت بعض الممرات والمعابر نحو رواندوز ، فأندفع منها الجيش العثماني وحاصر المدينة ووجه فوهات المدافع اليها ، وحاول الأمير أن يقاوم ولكن دون جدوى . فقد كان من الصعب جداً رأب الصدع ولم الشمل وجمع الجيش الذي تمزق شر ممزق بالرغم من توسلات الضباط الصغار . وعندما أستشعر الامير عجزه عن حشد قواته في سبيل مقاومة جدية ، أستسلم في نهاية شهر أب ١٨٣٦ مضطراً . وهكذا سقطت راوندوز وذهبت كل التدابير والمجهودات الحربية هباءً بدون وقوع المعركة الفاصلة .

يذكر بعض المؤرخين أن الأمير أستسلم مضطراً بسبب شحة المياه والمواد الغذائية التي لم تعد تكفي لقواته ، والذي أراه أن شحة المياه والمواد الغذائية لم يكونا سبباً رئيسياً في أستسلام راوندوز . فالأمير كان قد وفر هذه المستلزمات منذ أمد والكرد كانوا دائماً يخزنون الأرزاق الأحتياطية . فالحروب كانت محتومة في كردستان فمن الضروري أتخاذ الأهبة لها ، كما كانت لمدينة راوندوز الحصينة طبيعياً مصادر مائية خاصة ودائمية وبذلك تكون قادرة على الثبات في وجه الحصار[٤٨] .

ويذكر المكرياني أن الأمير أعطى رشيد باشا مئتي حمل بغل من النقود[٤٩] ورغم المبالغة في كمية المبلغ ، فأني أعتقد أن الأمير لم يحاول أستخدام الأسلوب القديم الذي قد يقصده المكرياني أي شراء السلام بالمال والتظاهر بالطاعة للسلطان . صحيح أن الرشوة كانت شائعة في الدولة العثمانية وكانت الأموال من العوامل الرئيسية التي تغير من سياسة الباب العالي . إلا أن الدولة لم تعد تقبل بها لأنها كانت قد أدخلت في منهاجها القضاء على الأمارات الكردية . فأن رأساً حان أوان قطفه لا يفدى بأي مال ، كما يقول المثل الكردي . حيث أن الدولة العثمانية كانت قد أنشأت منذ عام ١٨٢٧ مدالية حرب كردستان لتمنحها للذين سوف يستبسلون من جنودها في القضاء على الكيانات الكردية . أما أموال الأمارة وموجودات دارها فأن القوات العثمانية التي دخلت راوندوز بقيادة علي رضا والبيرقدار ، ومكثت فيها بضعة أشهر بأمر من رشيد باشا ، قد نهبتها جميعاً .

أستسلم الأمير محمد للقائد العثماني قبل الفجر بصحبة الملا محمد الخطي بعد أنْ عهد بالأمارة لأخيه الأمير أحمد . وأظهر رشيد باشا عظيم أمتنانه للخطي ووعده بعودة الأمير سالماً الى راوندوز ! ! وأخذ رشيد باشا بنظر الأعتبار شهرة الأمير وعامله بأحترام . وبأمر من السلطان أرسله الى أستنبول حيث أستقبله السلطان محمود الثاني بأحترام ايضاً وسمح له بالرجوع الى كردستان ، لكنه قرر التخلص منه بطريقة دنيئة بأصدار أوامره الى ولاة الطريق بقتله .

وبينما كان الامير في طريقه الى راوندوز ، فاجأه التتر – حامل البريد السلطاني – يحمل البراءة في قتله الى والي سيواس فاعدم الحياة[٥٠] عام ١٨٣٨ م وبطريقة جلد الرقبة بالسيف على الاكثر .[٥١] وبصورة سرية واخفيت جثته عن الانظار . وشاهد مرافقوه في اليوم التالي فروته الثمينة وبنطلونه وعمامته في ايدي الدلالين في السوق ففادروا مسرعين الى كردستان[٥٢] .

وفي مقابلة للميجر فردريك ميللنجن مع رسول باشا شقيق الامير والذي كان والياً على وان في عام ١٨٧٠ ، سأله الميجر عن مصير اخيه الامير محمد فأجاب : – انه اركب سفينة حربية من استنبول على اساس اعادته مكرماً الى كردستان . . . ولكنه لم يصل الوطن ولم يشاهده احد في اي مكان ولا يعلم الا الله ما جرى له ولرفاقه الخمسة[٥٣] .

ويذكر طائفة من المؤرخين أن السلطان اكرم الامير ومنحه رتبة امير الامراء «مير ميران» وفرمان الباشويه وسمح له بالعودة الى راوندوز ولكن موت رشيد باشا المفاجئ والذي كان قد تعهد بسلامة عودته كان سبباً في تراجع الدولة ثم قتله بتحريض من علي رضا باشا الذي اقنع سلطان استنبول بضرورة اعدامه والتخلص منه خوفاً من ان يعود الى امارته في تلك الظروف العصيبة التي كانت تجتازها الدولة العثمانية[٥٤] . .

ان هذه الاقوال لا تصمد امام التحليل والنقد التاريخي . فقد استسلم الامير في آب ١٨٣٦ وأخذ اسيراً الى استنبول . وان رشيد باشا توفي في كانون الثاني ١٨٣٧ . ففترة خمسة اشهر كانت كافية للتفاهم مع الامير وتزويده بفرمان الباشوية . ولو كانت الدولة العثمانية صادقة النية معه كانت لا تستدعيه الى استنبول اصلاً بعد استسلامه . . . ولا ننسى هنا ان اعدام الاشخاص من غير محاكمة ولا سؤال كان من الامور المألوفة وكان يتم ليس بامر السلاطين وحدهم بل على أمر الولاة والباشوات ايضاً[٥٥] .

مهما يكن فان الامير اغتيل بعيداً عن الوطن ولا أحد يعرف قبره واين يرقد وما زال هذا الامر مجهولاً الى الآن . وتركت مأساة قتله هذه آثاراً عميقة في نفوس الاكراد ، فخُلدت ذكراه في الاغاني الكردية التاريخية والقصص والملاحم الشعبية التي ما تزال تغنى وتروى عن سيرته وبسالته ومأساة نهايته التي عمقت المأساة اكثر في النفوس .

لم تكتف القوات العثمانية بالسيطرة على راوندوز واستسلام الامير فقط ، بل تعدت لأخضاع جميع سكان المنطقة الذين لم ينحنوا لها . فشهدت المنطقة ولمدة ثلاثة اشهر الويلات وراح اكثر من عشرة الاف كردي ضحية على ايدي القوات العثمانية ، اضافة الى تدمير ونهب الكثير من القرى ولم يقف الاكراد مكتوفي الايدي بل قاوموا الظلم وباعتراف المعاصرين فقد قتل عدة الاف من الجنود العثمانيين ثم اخذ مرض الكوليرا يحصد ارواح جيش رشيد باشا ولم ينج هو ايضاً فتوفي مصاباً به في ديار بكر اوائل عام ١٨٣٧[٥٦] .

ان رشيد باشا ومن ثم حافظ باشا الذي احتل بعده منصب القائد العام ، عاملا الوطنيين الاكراد بمنتهى الوحشية دون مراعاة الجنس والاعمار ، وكانا يقدمان الجوائز لقاء قطع رؤوس وآذان واصابع الوطنيين الكرد[٥٧] . ويذكر باسيل نبكيتين : انه حدث ان وقع احد بكَوات الاكراد اسيراً اثناء حملة حافظ باشا عام ١٨٣٧ . فما كان من الباشا الحقود الا ان رماه في قدر من الزيت المقلي . فلبث محافظاً على رباطة جأشه حتى مات ، لانه رفض الادلاء باي معلومات عن الثوار الاكراد رغم العروض المغرية[٥٨] .

بعد ان استسلم امير سوران للقائد العثماني بتحايل من العناصر الموالية للسلطان العثماني وجه علي رضا باشا نشاطة نحو العمادية فحاصرها في حدود عام «١٨٣٧ م» والقى القبض على اميرها اسماعيل باشا وارسله مكبلاً الى بغداد . وقد ذكر الشاعر الشيخ صالح التميمي حادثه الاستيلاء على العمادية في قصيدة مدح فيها والي بغداد فقال : –

على لوائك خـــط الـــنصر والـــظـــفـــر
جـــرى الـــقضـــاء بما قـــد خـــط والـــقـــدر
فـــاسعـــد بـــفـــتح قضت فـــيـــه الـــسعود لـــه
يوم اغـــــرف من الايـــــام مشتهـــــر
قـــد يـــقـــبـــل الـــعـــذر لـــكن مـــا عـــلـــمت بما
والي الـــعماديـــة المخذول يـــعـــتـــذر
كـــم في المحمـــر الـــعبرى لـــه عبر
ان لم تـــفـــده في «اربـــيـــل» يـــعـــتبر
لـــكـــنـــه «جـــابـــر» الـــثـــاني طق وبـــغى
وغـــايـــة الـــبـــغي كسر لـــيس يـــنـــجبر[٥٩]

ان هذه الابيات مفيدة جداً لمعرفة تسلسل الاحداث فاربيل سقطت في أيار عام ١٨٣٦ وراوندوز في آب ١٨٣٦ والمحمرة في اوائل عام ١٨٣٧ وجابر هو اميرها المغلوب ، فيكون احتلال العمادية في اواخر او منتصف عام ١٨٣٧ على الاغلب .

لقد اضطر علي رضا الى ان يعيد اسماعيل باشا الى حكم العمادية اذ كانت الظروف العامة لا تسمح بتطبيق الحكم المباشر وحتى لا يثير في وجهة متاعب ضخمة في وقت كانت الدولة العثمانية مهيضة الجناح عقب نكبتها في معركة نزيب – قرية شمال حلب في حزيران ١٨٣٩ حيث انهار الجيش العثماني تماماً امام الجيش المصري[٦٠] وبعد انتهاء ازمة الدولة العثمانية مع محمد علي باشا بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ . حاول اسماعيل باشا ان يحصل على موافقة الدولة العثمانية في الاستمرار بحكم العمادية ، وكان تلبية طلبه هذا مستحيلاً فالدولة كانت قد ادخلت في منهاجها القضاء على الامارات الكردية . وفرض مركزية مباشرة على ممتلكاتها . . لذا رفض التماسه وأمرت الدولة . . والى الموصل محمد اينجه بيرقدار ان يقضي عليه ، فاضطر اسماعيل باشا ان ينازل البيرقدار والتقى الجيشان عند قرية «ايتون» المزورية واسفرت المعركة عن اندحار الجيش البادينى واحرق البيرقدار عشرات القرى الكردية ونهبها . . تحصن اسماعيل باشا في العمادية وبعد حصار دام عدة اشهر اضطر الى الاستسلام وفق شروط املاها عليه البيرقدار وتم نقله مع افراد عائلته الى بغداد حيث توفي عقيماً عام ١٨٧٢ ، ودخلت القوات العثمانية عاصمة امارة بادنيان عام ١٨٤٢ واستولت على جميع المناطق التابعة لها والحقت العمادية وعقرة بالموصل[٦١] .

الأمير السوراني الأخير

ارتبكت الامور في سوران وعمتها الفوضى بعد مصرع الامير محمد فقد تحركت امارة بابان واحتلت مناطق مركَه وقمجوغة ورانية وكويسنجق وحرير وبسط الامير احمد البابانى سيطرته على منگور وجناران وخوشناو . وعينت الدولة محمد المسرفي حاكماً على اربيل والسهول المحيطة بها جزاءً على خيانته للامير الكبير ووقوفه الى جانب القوات العثمانية ، وعين علي رضا اللاز على راوندوز اول الامر حاكماً تركياً لعله يستطيع ان يفرض الحكم المباشر فيها ولم يكن باستطاعة هذا الحاكم ان يفرض هذا النوع من الحكم فعاد الى حكم راوندوز والمناطق المحيطة بها الامير احمد وتميزت فترة حكمه بالفوضى حيث رفض اخوه سليمان بك الذي كان يعيش في قلعة «كاولوكان» الاعتراف به ، وتدخلت النساء في شؤون حكمه ، وقُتل في عهده ابرز وارفع الضباط رتبة في عهد الامير محمد ، والمدعو «عبد الله الاكوبي . . وادت تلك الفوضى الى اغتياله ايضاً بعد سنتين من توليه الحكم . . فأضطر والي بغداد ان يسند حكم راوندوز الى رسول باشا في حدود عام ١٨٤١ – ١٨٤٢ بناء على طلب السكان وحصرت الدولة ادارته على راوندوز وحرير وبالك وبرادوست . وصدر الفرمان الهمايوني بذلك على ان يدفع سنوياً ثمانين الف ريال الى الباب العالي[٦٢] .

باشر رسول باشا حكمه بقتل طائفة من رجال الامير محمد القدماء وتصالح مع امراء بابان الذين تنازلوا له عن ديره وحرير بصورة سلمية . ثم اخذ ينتقم من الذين خانوا شقيقة الامير الكبير ووقفوا مع القوات العثمانية عام ١٨٣٦ ، فهاجمت قواته حاكم اربيل واشتبكت معه في معركة جرح فيها المسرفي . وعادت قواته الى راوندوز دون ان تتمكن من احتلال اربيل . ثم طرد بايزيد بك البابشتي من منطقته الى اربيل بعد ان صادر املاكه واملاك اقربائه ولم يقتله بسبب شيخوخته[٦٣] .

ان رسول باشا حاول ان يعيد دور اخيه او يقلده فأخذ يهتم بشراء الاسلحة وتنظيم الجيش وامتنع عن دفع الاموال فتراكمت عليه وبلغت «٢٤٠» الف ريال ، فهاجمه والي بغداد نجيب باشا «١٨٤٢ – ١٨٤٩» بجيش كان معظمه من العشائر الكردية ، ولعبت الخيانة الداخلية دورها ايضاً في فشل المقاومة السورانية فأضطر رسول باشا الى ترك راوندوز واللجوء الى مدينة شنو الكردية في ايران ودخلت القوات العثمانية راوندوز في حدود عام ١٨٤٧ بعد معارك لا تستحق الذكر في منطقة حرير .

ويعد رسول باشا الذي فشل في اعادة مجد الامارة السورانية اخر حكام راوندوز من الامراء السورانيين وخلصت المدينة من بعده للعثمانيين تماماً بتعيين حاكم عثماني عليها .

لقد حاول رسول باشا من مدينة «شنو» ان يثير المتاعب في وجه حكام راوندوز واخذ يعرقل اعمال لجنة الحدود المشتركة «العثمانية ، الفارسية ، الروسية ، البريطانية» ، لذلك تدخل المسؤولون الانكليز لدى البلاط الفارسي لنقل رسول باشا الى طهران بعيداً عن الحدود . فعمد رسول باشا الى التفاهم مع نجيب باشا . وكان ذلك التفاهم بواسطة الانكليز . ويقول الدكتور نوار بهذا الصدد : «لعل هذه الوساطة اطمعت رسول بك في ان يستعيد حكم مدينته عن طريق الانكليز . . . .[٦٤] .

لكن نجيب باشا ادرك خطورة اعادته الى الحكم من حيث ان ذلك يهدد سياسة اعادة الحكم المباشر التي يتبعها في كردستان فاشترط ان يقيم رسول باشا في حالة عودته ، في مكان يقع غربي دجلة بعيداً عن الكرد وان يستمر ثلاث سنوات في هدوء حتى يمكن النظر في أمر اسناد حكم مدينة اليه[٦٥] ، ويظهر ان رسول باشا وافق على هذه الشروط فالمراجع التاريخية تذكر انه عاش في محلة امام قاسم في كركوك وعين متصرفاً لبغداد ووالياً لوان وارضروم حيث توفي عام ١٨٨١ وما زال احفاده باقين الى اليوم .

ومن المفيد ذكره اخيراً ان رشيد باشا وعلي رضا اللاز ومحمد اينجه بيرقدار حصلوا على انعامات السلطان من جراء عملهم في القضاء على امارة سوران ، وذكر الشعراء اعمالهم في قصائد كثيرة وان سقوط امارة سوران القوية مهد الى سقوط امارات بادينان ١٨٤٢ وبوتان وهكاري عام ١٨٤٨ وبابان ١٨٥٠ وبدليس ١٨٤٩ وحل الموظفون العثمانيون محل الامراء والاكراد فقضي بهذا على اغلب ما كان يلم شعث الامة الكردية على كل حال[٦٦] وذلك باحكام الدولة العثمانية سيطرتها المباشرة على كردستان .

لقد ترك انتزاع الدولتين الفارسية والعثمانية السلطة من الامراء الاكراد في كردستان اثاراً عميقة نفسية واجتماعية واقتصادية على الشعب الكردي ما زال بعضها قائماً حتى اليوم تؤثر على سير حركة تاريخه وتقدمه في كافة المجالات ، فقد ظهرت قوة الاغوات العشائريين والرؤساء المحليين ورجال الدين المتنفذين بعد زوال حكم الامراء الاكراد ، بدعم من السلطات الايرانية والعثمانية ليكونوا بمثابة صلة بالموظفين الاجانب الذين عينوا في كردستان ولم يتمكنوا من حكمه وادارته الا بمساعدة هولاء

المتنفذين الذين اصبحوا شراذم تساعد الدولتين على احكام سيطرتهما . فبفضل دعم السلطات لهم اخذوا يتمتعون بسلطات لا حدود لها ولا رقيب عليها فرأي الاغا او الشيخ او البك كان قاطعاً في كافة الشؤون خاصة الداخلية للاكراد . وازداد اكثر فاكثر تدهور وضع الجماهير الكردية التي اصبحت اشبه ببضاعة بيد هولاء يتاجرون بها . عندما تملكت هذه الطبقة الارستقراطية الجديدة من تثبيت مركزها وسلطتها المطلقة بفضل قانون الطابو الذي اصدرته الدولة العثمانية عام ١٨٥٩ حيث سمح لهم القانون بتسجيل الاراضي الواقعة تحت سيطرتهم او اراضي عشائرهم باسمائهم فجرد القانون الفلاحين بصورة رئيسية من اراضيهم وخلق طبقة من الملاكيين التجار الذين يمتلكون وثائق شرعية تثبت امتلاكهم لاراضي معينة[٦٧] .

اما الامراء الاكراد فقد فرضت على الكثير منهم الاقامة الاجبارية في المدن الكبرى وخصصت لهم الدولة رواتب ومخصصات مقطوعة . ولضمان ولاء اولادهم للسلطان ادخل عددٌ كبيرٌ منهم في المدارس الخاصة في استنبول فكانوا بمثابة رهائن ايضاً ، واحتل قسم منهم وظائف كبيرة فيما بعد .

ان القضاء على الامارات الكردية وتشتيت امرائها وفرض الحكم المباشر على المدن الكردية وتفريق كلمة الكرد اكثر من ذي قبل لم يكن يعني انتهاء النضال المعادي للدولة العثمانية فقد استمر نضال الاكراد واستمر قمع وارهاب العثمانيين ، فالأسر الكردية الحاكمة ، ورغم جهود السلطات العثمانية ، لم تنعزل تماماً عن المشاركة في الحياة السياسية والاقتصادية في كردستان ، فاولاد الامراء الذين درسوا وتخرجوا من مدارس السلطان الخاصة وشغلوا مناصب عديدة في كبريات المدن والولايات العثمانية اخذوا يلعبون دوراً مهماً في الحياة السياسية الكردية فقد لعب افراد الاسرة البدرخانية مثلاً دوراً كبيراً في نشر الوعي القومي وكان لافرادها باع طويل في تطوير الاتجاهات نحو الوطنية .

المصادر والمراجع والهوامش

١ - ان لفظة سوران في الحقيقة تشمل محافظة اربيل برمتها ، لكنها باتت اليوم تدل على منطقة واسعة من كردستان العراق ، ويختلف المورخون في اصل تسميتها بهذا الاسم .

٢ – حسين حزني المكرياني :- موجز تاريخ امراء سوران . ترجمة محمد الملا عبد الكريم . بغداد ، ص ١٠ .

٣ – د . احمد عثمان ابو بكر :- اكراد الملي وابراهيم باشا . بغداد ١٩٧٣ . ص ٣٢ .

٤ – ستيفن همسلي لونكريك :- اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ترجمة جعفر الخياط . بغداد – ط ٥ ص ٣٤٣ .

٥ – الميجر سون :- رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان ترجمة فواد جميل . جـ٢ . بغداد ١٩٧١ ص ١٤٨ كذلك انظر ن .أ . خالفين :- الصراع على كردستان «المسألة الكردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر» ترجمة د . احمد عثمان ابو بكر . بغداد ١٩٦٩ ص ٤٩ ٥٠

د . عبدالعزيز سليمان نوار :- تاريخ العراق الحديث . القاهرة ١٩٦٨ ص ١٩٥

د . جليلي جليل :- اكراد الامبراطورية العثمانية في النصف الاول من القرن التاسع عشر «باللغة الروسية «موسكو ١٩٧٢ وقد ترجم الدكتور عبدالجبار قادر غفور مشكوراً ما يتعلق بالموضوع الى اللغة العربية .

٦ – ريجارد كوك :- بغداد مدينة السلام – ترجمة مصطفى جواد وفواد جميل . بغداد ١٩٦٧ – جـ٢ ص ١٤٥

كذلك انظر عباس العزاوي :- تاريخ العراق بين احتلالين جـ٦ ص ٣١٠

٧ – الكيس عملة عثمانية وكانت في تلك الايام على نوعين كيس الفضة وهو يحتوي على خمسمائة قرش ، وكيس الذهب ويساوي ما قيمته عشرة الاف قرش اي انه يعادل عشرين كيساً فضةً

٨– ستيفن همسلي لونكريك»:- المصدر السابق ص ٣٣١ كذلك د . عبدالعزيز سليمان نوار :-المصدر السابق ص ٣٣ .

٩ – عباس العزاوي :- المصدر السابق ص ٣٠٨ ٣٠٩ كذلك انظر د . علاء موسى نورس :- حكم المماليك في العراق . بغداد ١٩٧٥ ص ٢٥٥ . وخليل مردم بك :- اعيان القرن الثالث عشر . بيروت ١٩٧٧ ، ط٢ ص ١٨١

١٠ – عباس العزاوي المصدر السابق ص ٣١٠ . وانظر كذلك سليمان الصايغ تاريخ الموصل جـ ١ - القاهرة ١٩٢٣ ص ٣١٠

١١ – ريجارد كوك :- المصدر السابق ص ١٥٠ ١٥١ كذلك انظر لونكريك : المصدر السابق ص ٣٢٩ – ٣٣١

١٢ – د . عبدالعزيز سليمان نوار :- المصدر السابق ص ٥٩ ٦٠ والصايغ :- المصدر السابق ص ٣١٠ – ٣١٤

١٣ - شهروز :- الاسم الرسمي الذي كان يطلق على البلاد البابانية ومنطقة كركوك قبل اعتبار الموصل « لواء- سنجق «وبعد التنظيمات الادارية اطلق اسم شهروز على منطقة كركوك فقط

١٤ - ستيفين همسلي لونكريك :- المصدر السابق ص ٣٤٠ كذلك د . عبدالعزيز نوار : المصدر السابق ص١٠٤ .

١٥ – د . عبد العزيز نوار :- المصدر السابق ص ٨٥ . ١٠٤ – ١٠٥ .

١٦ – يذكر ياسين خير الله العمري في كتابه : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء . تحقيق ونشر سعيد الديوجي . الموصل ١٩٥٥ ص ٢٩٤ ٢٩٥ . ان البيرقدار اتى بالخبراء من راوندوز لصنع المدافع . وانهم عملوا له مايقارب ثمانين مدفعاً .

١٧ – سليمان الصايغ :- المصدر السابق ص٣١٤

كذلك انظر د . عبدالعزيز نوار :- المصدر السابق ص ٨٥ – ٨٦

وصديق الدملوجي :- امارة بهدينان – الموصل ١٩٥٢ ص ٥١ ٥٢

١٨ – سليمان الصايغ :- المصدر السابق ص ٣١٣ – ٣١٤ . كذلك د. عبد العزيز نوار :- المصدر السابق ص ٨٥ – ٨٦

١٩ – محمد احمد مصطفى الكزني :- الشيخ نور الدين البرفكاني . القاهرة ١٩٨٢ ص ٦ . ٦٠ نقلاًعن تحفة السالكين ورقة ٦ .

٢٠ - ياسين خير الله العمري :- المصدر السابق ص ٢٩٤ – ٢٩٥

٢١ - كر عرب :- قرية كانت تقع على نهر الكومل في قضاء الشيخان لم تعد قائمة الان . وهناك قرى اخرى في قضاء سنجار بهذا الاسم والجدير بالذكر ان الاكراد خلدوا ذكرى هذه المذبحة في اغانيهم التأريخية التي مازال تغني بشكل حزين الى اليوم .

٢٢ سليمان الصايغ :- المصدر السابق ص ٣١٠ – ٣١١ كذلك انظر حسين حزني المكرياني :- المصدر السابق ص ٦٢ ٦٤

وصديق الدملوجي : المصدر السابق ص

٢٣ – حسين حزني المكرياني :– المصدر السابق ص ٦٣ .

٢٤ – حسين حزني المكرياني :– المصدر السابق ص ٦٣ .

٢٥ – محمد رشيد باشا الكرجي الاصل سرعسكر الشرق وقائد الجيش العثمانيز في معركة قونية التي حدثت بينه وبين الجيش المصري سنة ١٨٣٢ واسر هو فيها ثم اطلق ابراهيم باشا سراحه . كان محمد رشيد باشا من اكابر رجال الدولة سبق وان نال الصدارة سنة ١٨٢٩ وفصل عنها سنة ١٨٣٣ وولى سيواس سنة ١٨٣٤ .

٢٦ – علي سيد والكوراني :– من عمان الى العمادية او جولة في كردستان الجنوبية . القاهرة ١٩٣٩ ص ١٢٣ – ١٣٣ كذلك انظر حسين حزني المكرياني :– المصدر السابق ص ٤٣ . ٦٧ .

٢٧ – د . جليلي جليل :– هجوم القوات العثمانية على كردستان ترجمة د . كاوس قفتان . مجلة كاروان العدد « ٢٧ » السنة الثالثة ١٩٨٤ .

٢٨ – سليمان الصايغ :– المصدر السابق ص ٣١٧ وانظر كذلك د . سامي سعيد الاحمد :– اليزيدية احوالهم ومعتقداتهم . جـ١ . بغداد ١٩٧١ ص٨١ .

٢٩ – اسكي موصل :– ومعناها بالتركية الموصل القديمة وتقع شمال الموصل بحوالي ٥٠ كم وعلى الضفة الغربية من دجلة وعرفت قديما باسم «بلد . بلط» وكان يوجد فيها معبر من الارماث انظر عبدالله امين أغا :–:– بلدة «اسكي موصل » تاريخها واثارها . الموصل ١٩٧٤ .

٣٠ – جيمس بيللي فريزر :– رحلة فريزر الى بغداد ١٨٣٤ نرجمة جعفر الخياط . بغداد . ١٩٦٤ ص ٢٠٠

٣١ – د. عبدالعزيز سليمان نوار :– المصدر السابق ص ١٠٥

٣٢ – جليلي جليل :– المصدر السابق ص ١٠١ . ١٠٣ كذلك انظر مجلة كاروان العدد السابق نفسه .

٣٣ – جليلي جليل :– المصدر السابق ص ١٠٠ – ١٠٥ . ومجلة كاروان العدد ٢٧ . كذلك صديق الدملوجي :– المصدر السابق ص ٤٥ – ٤٧ .

٣٤ – ن . أ . خالفين :– المصدر السابق ص ٥١ .

٣٥ – د . عبدالعزيز سليمان نوار :– المصدر السابق ص١١١ .

٣٦ – حسين حزني المكرياني المصدر السابق ص ٦٥ وانظر كذلك د . جليلي جليل : المصدر السابق ص ١٠٦–١٠٧ .

٣٧ – ابراهيم الوائلي :– الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر . بغداد ١٩٧٨ ط٢ ص ١٦١ – ١٦٢

٣٨ – عباس العزاوي :– عشائر العراق جـ٢ ص ١٣٣ .

٣٩ – صديق الدملوجي : المصدر السابق ص٤٧ وأنظر محمد أمين زكي : تأريخ الدول والأمارات الكردية . ترجمة محمد علي عوني . القاهرة . ص٢٤٣ – ٢٤٦ .

٤٠ – يعتبر مولتكه من أبرز القادة العسكريين الألمان وكان يشرف على أجهزة الدولة العثمانية الحساسة بالشعب الكردي فقد أستعان به الباب العالي خلال الفترة من ١٨٤٣ – ١٨٣٩ لتنظيم الجيش العثماني ، فأضطر للخوض كمفتش في جيش حافظ باشا في معارك ضد الأكراد . فسجل أنطباعاته وقدم من خلالها صوراً واقعية عن الظروف الصعبة التي كان يعيشها الشعب الكردي في ظل حكم السلاطين المتخلفين ، وعن نضاله الدؤوب من أجل الأنعتاق .

٤١ – ن . أ . خالفين : المصدر السابق ص٥١

٤٢ – جليلي جليل : المصدر السابق ص ١٠٧ ، وأنظر علي سيدو الكوراني : – المصدر السابق ص ١٣٣ .

٤٣ – سليمان الصايغ : المصدر السابق ص ٣١٢ – ٣١٣

٤٤ – حسين خزني المكرياني : المصدر السابق ص٦٧ – ٦٨

٤٥ – عباس العزاوي : تأريخ العراق بين أحتلالين جـ٧ ص ٤٣ – ٤٤ وانظر محمد امين زكي : مشاهير الكرد وكردستان جـ٢ ١٤٧–١٤٨ .

٤٥ – عباس العزاوي : تأريخ الكرد وكردستان جـ٢ ١٤٧ – ١٤٨

٤٦ – حسين حزني المكرياني : – المصدر السابق ص٦٤ – ٦٥

٤٧ – جليلي جليل : المصدر السابق ص١١١ وأنظر مجلة كاروان العدد ٢٧

٤٨ – أي . أم . هاملتون : طريق في كردستان ترجمة جرجيس فتح الله . بغداد . ١٩٧٣ . ص٦٧ كذلك أنظر . دبليو . أر . هي : سنتان في كردستان . ترجمة فؤاد جميل . بغداد ١٩٧٣ . جـ٢ ص ١٠ – ١١

٤٩ حسين خزني المكرياني : المصدر السابق ص ٦٨ – ٦٩

٥٠ – سليمان الصايغ : – المصدر السابق ص ٣١٣ . كذلك أنظر الميجرسون : المصدر السابق ص ١٤٨ – ١٤٩ . ومحمد أمين زكي : مشاهير الكرد وكردستان ص ١٤٧ ١٤٨ .

٥١ – طريقة جلد الرقبة بالسيف كانت تنفذ بذوي الخطر من الناس ويقاد الى غرفة مكبلاً بالحديد ويجلسونه على كرسي ويلفون حول عنقه حبالة شيف ويمسك بطرفيها جنديان ويأخذن يشدان على عنقه حتى يكسرا فقراته ويزهقا أنفاسه خنقاً . ثم يأتي الجلاد يفصل الرأس عن الجسد ويغسل ويسلخ ويحشى بالقش أو التبن ويوضع في صندوق ويقدم للوالي الذي يرسله بدوره الى أستنبول بعد أن يراه .

٥٢ – حسين حزني المكرياني : المصدر السابق ص ٦٩ – ٧٠

٥٣ – محمد أمين زكي : الكرد وكوردستان . جلد ١ . ٢ . ٣ . بغداد ١٩٣١ هامش ص ٤٠٣ «باللغة الكردية» .

٥٤ – د . عبدالعزيز سليمان نوار : – المصدر السابق ص ١٠٩ والهامش

٥٥ – ساطع الحصري : – البلاد العربية والدولة العثمانية . القاهرة ١٩٥٧ . ص ٧٥

٥٦ – د . جليلي جليل : مجلة كاروان العدد ٢٧

٥٧ – ن . أ . خالفين : المصدر السابق ص ٥٤

٥٨ – باسيل نيكيتن : الأكراد . . ترجمة دار الروائع بيروت ص ٦٤

٥٩ – أبراهيم الوائلي : المصدر السابق ص ١٦٤ ١٦٥

٦٠ – د . عبدالعزيز سليمان نوار : المصدر السابق ص ١١٠ – ١١١ وأنظر كذلك د . علي الوردي : لمحات أجتماعية من تأريخ العراق الحديث . بغداد ١٩٧١ . جـ٢ ص ٤٣ ٤٤

٦١ – أنور المائي : الأكراد في بدينان . الموصل ١٩٦٠ ص١٧٦ كذلك أنظر عباس العزاوي : العراق بين أحتلالين جـ٧ ص ٣٦ – ٣٧ ومحمد أمين زكي : تأريخ الدول والأمارات الكردية ص ٣٩٨ – ٣٩٩

٦٢ – حسين حزني المكرياني : المصدر السابق ص ٧٠ – ٨٠ كذلك أنظر د . عبدالعزيز نوار المصدر السابق ص ١٠٩ – ١١٠ .

٦٣ – حسين حزني المكرياني : – المصدر السابق ص ٧٦

٦٤ – د . عبدالعزيز سليمان نوار : المصدر السابق ص ١٠٩

٦٥ – د . عبدالعزيز سليمان نوار : نفس المصدر ص ١٠٩ – ١١٠

٦٦ – ستيفن همسلي لونكريك : المصدر السابق ص ٣٤٤

٦٧ – أنظر حول هذا الموضوع :

الميجرسون : المصدر السابق جـ١ ص ٢٣٩ – ٢٤٣ د . عماد أحمد الجواهري : – ملاحظات عن الأقطاع وحيازه الأراضي في كردستان . . مجلة كاروان العدد ٣٤ السنة الثالثة ١٩٨٥

د . شاكر خصباك : الأكراد . . بغداد ، ١٩٧٢ ص ٢٥٠ – ٢٥٣

د . عبدالرحمن قاسملو : كردستان والأكراد . دراسة سياسة أقتصادية بيروت ١٩٧٠ ص ١٦١ – ١٦٨

باسيل نيكتين : المصدر السابق ص ١٢٧ .

الموصل في ١٩٨٦/٩/١١